نموذج الإنسان الذي يحاول تغييب الواقع العام من أجل أن لا يرى إلا واقعه الذاتي، لكن حقيقة الأمور سرعان ما تلغي هروبه الزائف وتعيده إلى الواقع العام الذي لم يفارقه إلا في وهمه وحلمه المستحيل. أما «زهدي» فهو الفلسطيني الذي خبر شكل العمل والغربة في البلاد العربية، ثم عاد إلى الوطن مدفوعا بغريزة وطنية، وتعلق عفوي بمصير الوطن، ومن «العفوية» و«الغريزة» يصل إلى السجن، كي يموت فيما بعد إلى جانب «أسامة» في معركة موجهة ضده وضد أمثاله. وأخيرا، هناك «باسل الكرمي» أو «أبو العزيز»، شقيق «عادل»، إنه الطفل الفلسطيني الذي ينتجه واقع الاحتلال، ويجعل من السجن جزءا من طفولته، وفي السجن يتعلم دروسا جديدة، كي يسير فيما بعد في طريق «الاحتراف الثوري». إنه رمز المستقبل الذي يحتج على حاضر مثقل بالاسار العائلي ومحاصر بالوجود الإسرائيلي.

قلنا، فيما سبق، إن النص يستوي أدبيا عندما يغيب الكاتب منه، أما عندما يدخل فيه، أو يتدخل في علاقاته، فإن شيئا ما يذهب من النص، يتهاوى، ويكتنفه «الضباب»، يصبح من الصعب اقتفاء أثر متسق للشخصية التي تنوس، أو يجب أن تنوس، بين حركتها الموضوعية المحددة بشروطها المادية وبممارستها اليومية ووعيها الاجتماعي، وحركتها القلقة، الخارجة عنها، التي يجرها الكاتب إليها، بسبب قلقه ككاتب، أو بسبب انتقاله من دلالة إلى أخرى بلا سببية ظاهرة أو مستترة. وعندما تذهب القراءة في سطور «الصبار»، فإن القراءة تدخل في «ضباب» بعض سطور هذه الرواية الأصيلة والمجددة. مما لا شك فيه أن سحر، تنطلق من اشكالية واضحة: التغيرات الاجتماعية، وسيرورة الوعي الاجتماعي الفلسطيني في هذه التغيرات. مع ذلك فإن سحر تقاسم الواقع قوله، تنتج شخصياتها روائيا، وتمنحها السمات والحركة الموضوعية، لكنها تتدخل – أحيانا – في مسار هذه الشخصيات، وتنطق باسمها، وتحملها أقوالها ورغباتها الذاتية (رغبات الكاتبة). أي تنسى إمكانات الشخصية الموضوعية. وقد توغل الكاتبة في التماثل بشخصياتها والحديث باسمهم، حتى لا نكاد نفرق بين سمات «أسامة» وسمات «عادل»، علما بأن لقاءهما مستحيل، أو أنهما يمثلان قطبين متعارضين. وقد لا نقرأ وعي «باسل» في حدوده وبراءته، وإنما نقرؤه في أيديولوجيا الكاتبة. إن تدخل سحر خليفة في حركة شخصياتها الروائية يجعل هذه الشخصيات «ملتبسة»، ومتعارضة الدلالة، أحيانا، لأنها لا تتقدم كعلاقات روائية موضوعية بل كعلاقات ذاتية – موضوعية، تحمل أثر الواقع من ناحية، وايديولوجيا الكاتبة من ناحية ثانية؛ وإذا كانت القراءة الروائية قادرة على عزل الذاتي عن الموضوعي، والامكانية الفعلية عن الامكانية المجردة، فإن هذا العزل يشير إلى تلوث العلاقات الموضوعية بالتصورات الذاتية للكاتبة، والتصور الذاتي بهذا المعنى، هو «تشتت» الوعي، التناقض فيه، أو قصوره الذاتي. كيف يعلن تدخل الكاتبة في الرواية عن ذاته؟ الأمثلة كثيرة، سنعطي بعضا منها:

– «قال أبو صابر: هذه المرأة جوهرة. تحاول أن تشدّ أزري بالدعوات والبسملات. لا بأس. مورفين مستحب. لكنني بحاجة للمجديات» (ص٦٦). إن أبي صابر البسيط، والغارق في بؤس بلا ضفاف، والحالم بسيرة «أبي زيد الهلالي»، كما تقول الرواية، لا يستطيع أن يتعامل مع الدين بهذا المفهوم، إن هذا التعامل صادر عن موقف الكاتبة من الدين لا عن أبي صابر الغارق في الوعي الديني.